'ULŪM ISLĀMIYYAH THE MALAYSIAN JOURNAL OF ISLAMIC SCIENCES
Vol.34 No.1 (April) 2022 ISSN: 1675-5936 | eISSN: 2289-4799

أدب السجون عند توفيق زياد: قصيدة "سمر في السجن" أنموذجا

[Prison Literature of Tawfiq Ziad: The Study of the Poem of "Samar Fi Al-Sijni"]

Nur Farhana Mohamad Zainol[1], Nursafira Lubis Safian[2]

[1] Department of Arabic Language and Literature, AbdulHamid AbuSulayman Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Literature, International Islamic University Malaysia, 50728 Kuala Lumpur, Malaysia

Corresponding Author: farhana.zainol@live.iium.edu.my

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل قصيدة "سمر في السجن" لشاعر فلسطيني توفيق زياد، وذلك من أجل استكشاف كيف كان توفيق زياد يشارك تجربته الشخصية أثناء اعتقاله مع المجتمع وكيف يستخدم قصيدته لإبراز القضية الفلسطينية عبر كلماته المؤثرة أولاً ثم الدفاع عن وطنه ثانياً. حاولت هذه الدراسة أيضا تسليط الضوء على آراء النقاد في تفسير معنى أدب السجون نظرا لأنهم يختلفون في تفسيره. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي حيث يقوم على تحليل موضوع السجن، في قصيدة المشار إليها. توصلت الدراسة إلى أن أدب السجون ليس عبارة عن كتابةٍ إبداعيةٍ كتبت داخل السجن فحسب، وإنما كتابةٌ تناولت قضية السجن، وحالة السجناء المؤلمة، ومدى معاناتهم وراء الزنزانة. وقد خلصت الدراسة إلى أن قصيدة "سمر في السجن" تحتوي على قضية السجن والعناصر النضالية والصمود التي تشجع كل شعب فلسطين للانتفاضة والمقاومة ومن ثم تحرير وطنهم من قسوة الاحتلال.

الكلمات المفتاحية: أدب السجون، توفيق زياد، "سمر في السجن"، فلسطين.

Abstract

This research analyzes the poem "Samar fi al-Sijni" by Palestinian poet Tawfiq Ziyad. It explores Tawfiq Ziad's personal experience during his detention with the community as well as to study how he used his poem to highlight the Palestinian issue and then defend his homeland. This study also aims at highlighting the opinions of the critics in interpreting the meaning of prison literature, since they come out with different interpretation. The study used the descriptive and analytical method, where it analyzed the content of the prison topic in the poem "Samar fi al-Sijni." The study finally shows that prison literature is not only a creative writing written inside the prison, but rather a writing that dealt with the prison issue as well as the painful condition of prisoners, and the extent of their suffering behind the cell. The study also concluded that the poem "Samar fi al-Sijni" contains the prison issues as well as the elements of struggle and steadfastness that encourage all the Palestinian people to stand and liberate their homeland from the cruelty of the occupation.
Keywords: Prison literature, Tawfiq Ziad, "Samar fi al-Sijni", Palestine.

Manuscript Received Date: 10/02/22 Manuscript Acceptance Date: 25/03/22 Manuscript Published Date: 01/04/22

©The Author(s) (2022). Published by USIM Press on behalf of the Universiti Sains Islam Malaysia. This is an Open Access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution Non-Commercial License(http://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/), which permits non- commercial re- use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original work is properly cited. For commercial re-use, please contact penerbit@usim.edu.my

COPE COMMITTEE ON PUBLICATION ETHICS

المقدمة

يعتبر الأدب مرآةً للمجتمع، فنرى الأديب يكتب عن الأشياء الواقعية التي تحدث حوله وحول المجتمع الذي يعيش فيه، قال شكري عزيز ماضي في كتابه: "في نظرية الأدب" أن الأديب يمثل عضواً في الجماعة، حيث تؤثر فيه التقاليد والعادات والموروث، فكل هذه الأشياء تؤثر في الأديب أي أنه يتأثر بالمجتمع كما هو يؤثر فيها كذلك (الماضي، 1993). وطالما أن الأديب عضواً في الجماعة فإن مشكلاته الخاصة تعتبر جزءاً من مشكلات المجتمع، إذن فالعمل الأدبي وإن كان نابعاً من شخص الأديب إلا أن حصيلته الشعورية والفكرية مأخوذةٌ من علاقة الأديب بالمجتمع (الماضي، 1993). وفي هذا دلالةٌ على أن الأديب والمجتمع مرتبطان بعضهما ببعض، حيث لا يمكن استغناء أحدهما عن الآخر في إنتاج أي عملٍ أدبيٍ.

ومع مرور الزمن صدرت العديد من الأعمال الأدبية التي تعكس واقع عصرٍ معينٍ، أو مجتمعٍ معينٍ، فلنأخذ الأدب الفلسطيني نموذجاً، حيث نرى أن الكثير من الروائيين الفلسطينيين عند إنتاجهم لرواياتهم يلتزمون إلى حدٍ ما بالأحداث السياسية التي شهدتها تلك الأرض المحتلة، فنجد رواية: "عائد إلى حيفا" بقلم الأديب المشهور غسان كنفاني الذي حاول آنذاك ترسيخ معاناة الشعب الفلسطيني، ثم نجد أيضاً أديباً فلسطينياً آخر وهو يحيى يخلف الذي خصص معظم رواياته لمتابعة نكبة فلسطين، وإحدى رواياته المشهورة "جنة ونار" (كامل، 2017). ثم كتب روائي آخر وهو حسين حميد: "أنين القصب" لتصوير الحياة الفلسطينية قبل النكبة، وفي الأيام التي سبقت وقوع الصراع بين العرب واليهود زمن الانتداب البريطاني (صالح، 2020). وفي هذا دليلٌ على أن الأديب حين يكتب ويبدع، فإنه لا تخرج كتابته عن دائرة حياته، وحياة المجتمع الذي يعيش فيه.

وبناءً على هذا، نرى أن الأدباء الفلسطينيين قديماً وإلى عصرنا الحالي حاولوا تصوير أفكارهم وعواطفهم ومشاعرهم الخاصة حول قضية مجتمعهم المعقدة من خلال الكتابة، فكتبوا وظلوا يكتبون مع تقييدهم واعتقالهم خلف ظلمة الزنزانة والسجن للتعبير عن تجربتهم الشخصية داخل غياهب السجن حتى ظهر مصطلحٌ خاصٌ يسمى بـ"أدب السجون" وذلك بسبب كثرة الإنتاجات الأدبية التي صدرت من السجون الإسرائيلية، فكانوا يلجؤون إلى الكتابة؛ لأنها من وجهة نظرهم تعتبر باباً من أبواب استرداد الحرية (مصاورة، 2020). فصار الأدب عندئذٍ وحتى الآن سلاحاً استخدمه الأدباء الفلسطينيون للدفاع عن أرضهم المشرفة من الاحتلال الصهيوني، والواقع أن هناك الكثير من الأدباء العرب وغير العرب سجلوا تجربتهم في المعتقلات عن طريق الكلمات، إما في الشعر أو النثر إلا أن إبداع السجناء الفلسطينيين يبقى ظاهرًا من حيث القيمة والعدد نظراً لكونها تتعلق بالقضية الفلسطينية بشكلٍ واقعيٍ ومؤلمٍ أولاً، ولأنها تعتبر أطول قضيةٍ في تاريخ العالم ثانياً (Hanish, 2018).

ولا ننفي أن أدب السجون بشكلٍ عامٍ عُرف منذ قديم الزمان، إلا أن الأدباء والنقاد اختلفوا في تفسير معنى أدب السجون، فالبعض منهم قال إنه مجرد نصوصٍ كُتبت عن السجن، والبعض الآخر يرى أنها النصوص التي كتبها السجناء إلا أنهم ليسوا أدباء أصلاً، فهم كتبوها بسبب اعتقالهم، وهناك من جمع بين المعنى الأول والثاني (الأسطة، 2011). وسواءً كان أدب السجون الأول أو الثاني أو الثالث فهو في الحقيقة موجود منذ زمنٍ بعيدٍ قبل الإسلام، فنجد مثلاً عنترة كان قد كتب قصيدةً وهو في سجن المنذر الحرية (مصاورة، 2020). أما أدب السجون في فلسطين فقد اشتُهر في بداية القرن العشرين حيث كتب خليل بيداس كتابه المسمى بـ"أدب السجون" (مصاورة، 2020). ثم مع مرور الزمان زاد الإنتاج الأدبي الذي كُتب حول أدب السجون، فنجد مثلاً توفيق زياد أحد الشعراء الفلسطينيين المعاصرين الذي كتب قصيدةً "سمر في السجن" عام 1959م، وهو رهن الاعتقال في سجن الدامون (عبادي، 2019). فحاول توفيق زياد من خلال هذه القصيدة التعبير عن تجربته في سجن الدامون وذلك عن طريق استرجاع الذاكرة لمعاناته مع رفقته هنا (رابطة الكاتب الأردنيين، 2006). فالأديب توفيق زياد

أحد من شعراء المقاومة الذين عانوا مرارة السجن إلا أنه لم يضعف بل صار السجن مدرسة له وهي تلمع نفسه (زياد، 2006)، وحتى لُقب توفيق زياد بشاعر الأرض المحتلة (الزهراء وآمنة، 2020) دليلا على أن كل شعر أو نثر صدر منه يتعلق إلى حد ما بالمقاومة والصمود.

ولا شك أنه منذ وجود السجن والأسر شهدنا ظهور إنتاجاتٍ أدبيةٍ حول أدب السجون بشكلٍ واسعٍ، فنرى أن الدراسات المتعلقة بأدب السجون قد كثرت كذلك إلا أن معظمها ركزت على تعريف أدب السجون بذاته وتاريخه. أما الدراسة التي تقوم على تحليل مضمون أدب السجون في نصوصٍ أدبيةٍ معينةٍ فهي لم تكن كثيرةً، وهذا ما دفع الباحثتين بهذه الدراسة إلى محاولة تحليل مضمون قصيدة "السمر في السجن" للشاعر الفلسطيني توفيق زياد نظراً لأن هذا الأسلوب لم يتطرق إليه الكثيرون. أما السبب الذي دفع الباحثتين إلى اختيار قصيدة " سمر في السجن" دون غيره فهو عائدٌ إلى رغبتهما في معرفة الخبرة التي اكتسبها الشاعر توفيق زياد أثناء وجوده في سجن الدامون، وكيف استخدم قصيدته وسيلةً للتعبير عما واجهه هناك، ثم ثانياً إعجاب الباحثتين بجمالية اللغة والمعنى التي تحملها القصيدة، وتوفيق زياد كما رأته الباحثتان يستطيع أن يعبّر عن مشاعره وعواطفه أثناء اعتقاله حيث يستطيع القارئ أن يشعر بما مر بداخله من الألم والجرح خلف القُضبان، وبناءً على هذا، تسعى الدراسة إلى إبراز تعريفٍ شاملٍ لأدب السجون أولاً حتى نستطيع أن نعرف المراد الحقيقي بأدب السجون، ثم تحليل مضمون قصيدة "سمر في السجن" ثانياً، وذلك من أجل استكشاف كيف كان توفيق زياد يشارك تجربته الشخصية مع المجتمع من خلال الكلمات أثناء اعتقاله. فهذه الدراسة تهدف إلى الإجابة عن السؤال الرئيسي وهو:

هل السجون لها تأثيرٌ في إنتاج النصوص الأدبية، وكيف كان توفيق زياد يستخدم قصيدته "سمر في السجن" للتعبير عن تجربته الشخصية خلف القُضبان أولاً، وللتعبير عن واقع القضية الفلسطينية ثانياً؟

ولأجل الحصول على إجابة هذا السؤال فإن هذه الدراسة اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي، حيث يقوم على تحليل مضمون موضوع السجن في قصيدة "سمر في السجن" وذلك لأجل استكشاف المحور الرئيسي في هذه القصيدة، وكيف كان الشاعر توفيق زياد يستخدم قصيدته لإبراز القضية الفلسطينية عبر كلماته المؤثرة أولاً ثم الدفاع عن وطنه ثانياً.

فنظرا إلى أن الدراسات في هذا المجال في اعتقاد الباحثتين غير كافية قررت الباحثتان لكتابة هذه الدراسة التي بعنوان: "أدب السجون عند توفيق زياد: قصيدة "سمر في السجن" أنموذجا".

تعريف أدب السجون

أولا: تعريف السجن لغةً

وردت كلمة «السِّجْن» في المعجم الوسيط بأنها «المَحْبِسُ»، وجمعها «سُجُونٌ» وهي مصدر «سَجَنَ» وورد أيضاً في التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، وفي الحديث: ‹‹ليس شيء أحقَّ بطول سَجْن من لسان›› (أنيس وآخرون، 2004).

أما كلمة «السجن» في لسان العرب فقد جاءت بمعنى: «الحبس، بالفتح: المصدر. سجنه يسجنه سجناً أي حبسه. وفي بعض القراءات: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، فإن كان بكسر السين فهو المحبس وهو اسم، وإن كان بفتح السين فهو مصدر سجنه سجناً. والسجان: صاحب السجن. ورجلٌ سجينٌ: مسجونٌ، وكذلك الأنثى بغير هاءٍ، والجمع سجناء وسجني» (ابن منظور، 1414هـ).

ثم جاءت كلمة «السِّجْنُ» في معجم اللغة العربية المعاصرة بمعنى محبِس أي المكان الذي يُحبَس فيه المسجون، وفي الحديث: ‹‹الدُّنيا سِجْنُ المؤمنِ وجَنَّةُ الكافِرِ›› (عمر، 2006).

ثم وردت كلمة «سَجْنٌ» في معجم الغني بمعنى المصدر لكلمة «سَجَنَ» ويقال: "سَجْنُهُ مُخَالِفٌ لِلقَانُونِ" أي حَبْسُهُ: أي "حُكِمَ عليه بالسَّجْنِ". أما «سِجْنٌ» فهو بمعنى المَحْبَسُ أي المكان الذي يُحْبَسُ فيه السجين. و«سَجِينٌ» أو «سَجِينَةٌ» بمعنى المسجون أي المُعْتَقَل داخل جدران السِّجْنِ (العزم، د.ت).

من خلال التعريفات السابقة يظهر لنا أن السجن معناه المكان الذي يُحبس في السجناء، ويأتي أيضاً مرادفاً لبعض المفردات الأخرى مثل: «الأسر» و«الاعتقال» و«الحبْس» وجميع هذه الكلمات تحمل المعنى نفسه تقريباً (الزهراء وآمنة، 2020).

ثانيا: تعريف السجن اصطلاحًا

استفادت الباحثة شيرين من الكتاب بعنوان "السياسة الجزائية في فقه العقوبات الإسلامي" للكاتب أحمد الحصري حيث ذكر أن السجن في الاصطلاح يعرف بأنه المكان الخاص بتنفيذ الأحكام على الأشخاص المذنبين، وقد يتم تنفيذ حكم الموت والإعدام بحق هؤلاء السجناء، فيتم سجنهم لمدةٍ محددةٍ أو قد يكون بشكلٍ مؤبدٍ أيضاً (سليمان، 2018).

في حين أكدت الباحثتان فاطمة ومناصري في دراستهما أن المؤلف إسحاق أبي منصور قال في كتابه "الموجز في علم الإجرام والعقاب" إن السجون في الاصطلاح تعرف بالمؤسسات الخاصة المعدة على المحكوم عليهم لمواجهة العقوبات المناسبة لجنايةٍ معينةٍ، وكما تشترك في هذه المؤسسات الحكم بالأشغال المتعبة والعسيرة، فيحرم السجناء من الخروج ومن فعل أي نشاطٍ، كما لا يسمح لهم أيضاً الاعتياد على الحياة بشكلها الطبيعي، إضافة إلى أن السجن يكون مرتبطا ببعض التسميات، منها مؤسسة إعادة التربية، ومركز التأديب، ودار التهذيب والتقويم أو الإصلاح (الزهراء وآمنة، 2020).

أما الكاتب سالم المعوش في كتابه "شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر" فذكر أن السجون كما يراه عباس محمود العقاد هو: «مكاناً لاعتقال الأسرى أو المحكوم عليه بالموت، ثم أصبح مكاناً للتخلص من بعض المغضوب عليهم أو الواقفين في طريق ذوي السلطان» (المعوش، 2003). ثم جاء الكاتب بتعريفٍ آخر للسجن من صياغته، وهو أنه: «مدرسة للإصلاح والإنتاج الماديين بدل أن يكون بؤرة للفساد» وذلك لأنه يرى أن الإنسان قادرٌ على تغيير سلوكه المنحرف إلى الأحسن (المعوش، 2003).

وبناءً على التعريفات السابقة يمكن القول إن السجن في معناه الاصطلاحي مكانٌ خاصٌ مُعدٌ للمجرم نتيجةً لأعمالٍ معينةٍ، فينُفذ في حقه عقوباتٌ معينةٌ لمدةٍ محدودةٍ، والتي تختلف من مجرمٍ إلى مجرمٍ آخر.

تعريف أدب السجون

ذكر الكاتب رأفت خليل حمدونة في كتابه "الجوانب الإبداعية في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة في الفترة ما بين 1985 إلى 2015م" أن الشاعر الأسير المحرر فائز أبو شمالة عرّف أدب السجون بأنه كل الأشياء التي لها علاقةٌ بالشعور والوجدان الإنساني، وهي التي يعُبر عنها بشكلٍ فنيٍ أي من خلال الشعر أو القصة أو الرواية أو المسرحية أو الأغنية، وتنقسم إلى قسمين، الأول هو الذي يتعلق بالمعتقل نفسه، وهي النصوص التي كتبها المعتقلون أثناء وجودهم داخل السجن وحتى بعد خروجهم منه، وذلك لأن التجربة في غياهب السجن وأثره على السجين لا تنتهي مباشرةً، بل تمتد لفترةٍ طويلةٍ. أما الثاني فيرجع إلى النصوص التي كتبها الأدباء خارج السجن وخاصةً لمن تخيلوا حياة السجن وعاشوا مع السجناء واستمعوا لهم، فحاولوا حينها التعبير عن حياة السجن بأسلوبهم الفني الخاص، وإن كانوا ممن لم يخوضوا غمار تجربة السجن ولو لمرةٍ واحدةٍ (حمدونة، 2018).

ثم ذكر رأفت خليل حمدونة أن السجين خضر محجز يرى بأن أدب السجون هو كل إنتاجٍ لغويٍ كتبه السجناء أثناء فترة سجنهم بأسلوبٍ رائعٍ وجميلٍ، وذلك من خلال الشعر أو القصة أو الرواية أو المسرحية وغير ذلك من الشعر أم النثر، حتى ولو كان الموضوع ليس له علاقةٌ بالسجن (حمدونة، 2018).

أما سلمان جاد الله كما أكد رأفت حمدونة فيعرف أدب السجون بأنه النصوص الذي كتبه الأسرى داخل السجن من الشعر والرواية والقصة والزجل والمسرحية وحتى اللوحة الفنية، ولا يشمل هذا على المقالة والتاريخ والسياسة (حمدونة، 2018).

ثم أضاف الكاتب أن الأديب الأسير المحرر وليد الهودلي فسر أدب السجن بأنه لا يشمل الدراسة والكتابة في موضوعٍ غير متعلقٍ بإنتاجٍ أدبيٍ بل هو متعلقٌ بالنصوص التي كتبها الأسرى داخل السجن، أو على المذكرات التي كتبوها بعد خروجهم منه، ويشمل كذلك النصوص التي كتبها أشخاص آخرون عنهم وعن السجن من حيث الرواية والشعر والقصة والأنواع الأدبية الأخرى (حمدونة، 2018).

أما تعريف أدب السجون عند الباحثة إيمان مصاورة فهو: «الأدب الإنساني النضالي الذي ولد في عتمة وظلام الأقبية والزنازين وخلف القضبان الحديدية، وخرج من رحم الوجع اليومي والمعاناة النفسية والقهر الذاتي، والمعبر عن مرارة التعذيب وآلام التنكيل وهموم الأسير وتوقه لنور الحرية وخيوط الشمس» (مصاورة، 2020).

في حين قررت الباحثتان فاطمة ومناصري أن المؤلف جمال بنورة فسر أدب السجون في كتابه "دراسات أدبية" بأنه نوعٌ من الأدب الفلسطيني المقاوم، وهو أدبٌ واعدٌ مع أن السجناء كتبوه في حالةٍ صعبةٍ، وكتابتهم متوعّدة بالحجز إلا أنه قد وصل إلى مستوى جيدٍ من حيث المضمون والشكل، فوصول كتابتهم هذه إلى القراء يعتبر إضافةً هامةً حيث سيؤثر على الأدب الفلسطيني بشكلٍ عامٍ (الزهراء وآمنة، 2020).

أما الباحث عادل الأسطة فقد أتى بتساؤلاتٍ حول أدب السجون، هل يعتبر مجرد نصوصٍ أدبيةٍ كتبها أدباء داخل السجن، أم تشمل كذلك النصوص الأدبية التي كتبها السجناء وإن كانوا ممن لا يعدون في قائمة الأدباء. وإن كانوا مجرد سجناء ليس لهم أي صلةٍ بالكتابة فهل تعد كتابتهم ذا قيمةٍ أدبيةٍ واجتماعيةٍ؟ فمن الأدباء السجناء الذين تم سجنهم كما ذكر الباحث خليل توما والمتوكل طه وتوفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم وآخرون. أما السجناء الذين زاولوا الأدب وهم ليسوا أدباء فمنهم محمد عبد السلام وهشام عبد الرزاق ووليد الهودلي وغيرهم (الأسطة، 2011).

في حين أن الباحثة شيرين عرّفت أدب السجون بأنه كل عملٍ أدبيٍ متعلقٍ بموضوع السجن، وليس مهماً أن يكتب هذا العمل الأدبي بقلم الأديب السجين نفسه، أو الأديب الذي ليس له تجربةٌ في السجن، كما ليس من المهم أيضاً أن يكتبه داخل السجن أم بعد خروجه منه (سليمان، 2018).

وعلى الرغم من تعدد تعريفات أدب السجون، إلا أنه يدور حول مضمونٍ أساسيٍ واحدٍ، فمعظم الدارسين والباحثين والناقدين اتفقوا على أن أدب السجون هو النصوص الأدبية التي كُتبت داخل جدران السجن، إلا أن البعض منهم يرى أن أدب السجون يشمل كذلك الكتابة التي كتبها المعتقل خارج السجن أي بعد خروجه منه، نظراً لأن التجربة في غياهب السجن لا تنتهي مباشرةً بعد التحرر. ومع ذلك فكلهم متفقون على أن أدب السجون لا بد أن يكون كتاباً أدبياً مثل الشعر أو القصة أو الرواية أو الأنواع الأدبية الأخرى، ولا يتضمن هذا كتابة المقالة مثل المقالة السياسة والتاريخية وغير ذلك. وفي جانبٍ آخر نرى أن أغلب الباحثين اتفقوا على أن أدب السجون هو عملٌ أدبيٌ كتبه الأديب السجين، إلا أن بعضاً منهم يرى أنه ليس بالضرورة أن يكون أدب السجون قد كُتب من قبل الأديب الأسير نفسه، بل يدخل فيه أيضاً الأدباء الذين لم يمروا بتجربة السجن، إلا أنهم سمعوا عنه وعاشوا مع السجناء المحررين، عندها حاولوا الكتابة عن موضوع السجن، وهذا يعتبر من أدب السجون أيضاً.

وبعد القراءة والمراجعة في الأعمال الأدبية التي تم تصنيفها تحت أدب السجون ترى الباحثتان بأن أدب السجون لا بد أن يتضمن موضوع السجن مثل الكتابة عن المعاناة التي واجهها الأديب السجين وراء القضبان، ولا تقتصر الكتابة أثناء فترة اعتقاله فقط، بل يشمل أيضاً ما كتبه السجين بعد خروجه من السجن، شريطة أن لا يخرج موضوع الكتابة عن دائرة حياته وتجربته في السجن، أما بالنسبة إلى المسألة المتعلقة بكاتب أدب السجن، فقد أخذت الباحثتان التساؤلات التي أثارها الباحث عادل الأسطة بعين الاعتبار، ولهذا ترى بأن النصوص التي تُعتبر من أدب السجون هي ما إذا كان الشخص الذي كتبه فعلاً أديبٌ له صلة بالكتابة، أما إن كان ليس بأديبٍ، وليس له أي صلةٍ وتجربةٍ بالكتابة، فيكتب لمجرد ذكر قصته الشخصية أثناء فترة السجن من باب الذكريات وما شابه ذلك، ثم بعد خروجه من السجن لم يستمر في الكتابة، فكتابته هنا بالتأكيد لا تعتبر من أدب السجون، لأن الأدب ليس كتابةً عاديةً مثل كتابة التقرير والمقالة، بل هو كتابةٌ رائعةٌ مليئةٌ بالجمال، لا سيما من حيث الأسلوب والمضمون فيحاول الأديب من خلال ذلك التعبير عما في داخله بواسطة الكلمات، فكيف يمكن لهذه النصوص أن تُعتبر من قبيل الأدب إذا كُتبت من قبل شخصٍ لم يخض تجربة الكتابة سابقاً، فلا تحتوي كتابته على أية عناصر جماليةٍ وجذابةٍ، وليس لها أي قيمةٍ أدبيةٍ؟ وبناءً على هذا، جاءت الباحثتان بتعريف أدب السجون على أنه الشعر أو القصة القصيرة أو الرواية أو المسرحية أو الخاطرة أو أي نوعٍ أدبيٍ آخر متعلقٍ بموضوع السجن الذي كتبه الأديب أثناء فترة اعتقاله داخل السجن، وحتى بعد تحرره منه، وذلك لأن تجربة السجن لا تتوقف مباشرةً بعد خروجه منه.

أدب السجون في فلسطين

يذكر الباحث رأفت خليل حمدونة أن أدب السجون في فلسطين يعد «أدب مقاومة، وهو جزء من الأدب العربي المعاصر في فلسطين، والأدب الوطني والقومي، والأدب العربي والعالمي الحديث، لما يحمل من مميزات وخصائص، وحس إنساني وعاطفي، ورقة مشاعر وأحاسيس ومصداقيه، وقدرة على التعبير والتأثير، وهو كل ما كتبه الأسرى داخل وليس خارجه، بشرط أن يكون من أجناس الأدب كالرواية والقصة والشعر والنثر والخاطرة والمسرحية والرسالة...» (حمدونة، 2018). وانطلاقاً من هذا التعريف يظهر لنا أن أدب السجون في فلسطين يعتبر جزءاً من أدب المقاومة. فنرى أدباء فلسطينيين منذ قديم الزمن وإلى اليوم حاولوا مقاومة الاحتلال من خلال الكتابة، وذلك بواسطة التعبير عن واقع القضية الفلسطينية عبر كلماتهم المؤثرة، وكأنه سلاح استخدموه للدفاع عن أرضهم المحتلة، فلم يتوقفوا عن الكتابة مهما اعتقلوا أو سجنوا، بل صاروا أكثر اشتعالاً وحماسةً لنيل حرية وطنهم، وكرامتهم المسلوبة.

وقد اشتهر أدب السجون في فلسطين بداية القرن العشرين، حيث كتب خليل بيداس كتابه المسمى بـ"أدب السجون" (مصاورة، 2020). ثم كتب الشيخ سعيد الكرمي بعض قصائده في أواخر الزمن العثماني وهو حبيس داخل السجون العثمانية، كما كتب عوض النابلسي قصيدته المشهورة "ظنيت النا ملوك تمشي وراها رجال" أثناء سجنه عام 1937م (مصاورة، 2020). ثم كتب الأديب السجين محمد خليل عليان مجموعة من القصص أسماها بـ"ساعات ما قبل الفجر" عام 1985م، وفي سنة 1992م صدرت رواية "قهر المستحيل" لعبد الحق شحادة، كما صدرت روايتين للكاتب رأفت حمدونة وهما "عاشق من جنين" عام 2003م و"الشتات" عام 2004م". ثم في سنة 2007م كتب نافذ الرفاعي رواية "قيثارة الرمل" كما كتب مروان البرغوثي في سنة 2011م كتابه المسمى بـ"ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي" (مصاورة، 2020). ثم في العام نفسه صدرت رواية "سجن السجن" لعصمت منصور، كما صدر كتاب "الصمت البليغ" عام 2013م لخالد رشيد الزبدة وغير ذلك كثير. لو اطلعنا على عصرنا الحديث، نجد أن كثيراً من الشعراء الفلسطينيين الكبار مثل توفيق زياد وسميح قاسم ومحمود درويش وغيرهم قد كتبوا قصائدهم المقاومة في داخل السجون (مصاورة، 2020). وبناءً على هذا، لا ننفي أن أدب السجون في فلسطين ظهر منذ زمنٍ، لكنه بالتأكيد يزداد مع مرور الأيام، حتى أن الباحثة آمال أبو حنيش أكدت أن أدب السجون عند الفلسطينيين يبقى ظاهرًا من حيث القيمة

والعدد مقارنةً بأدب السجون الذي ينتمي إلى جنسيةٍ أخرى نظراً لكونها تتعلق بالقضية الفلسطينية بشكلٍ واقعيٍ ومؤلمٍ أولاً، ولأنها تعتبر أطول قضيةٍ في تاريخ العالم ثانياً (Hanish, 2018).

الترجمة عن توفيق زياد

اسمه الكامل توفيق أمين زياد، ولد في السابع من مايو عام 1929م في مدينة الناصرة بفلسطين. كان أبوه شخصاً عصامياً ورجلاً متديناً، حفظ القرآن وتعمق في دراسة الدين. توفي أبوه حينما كان طفلاً صغيراً، ما جعله معتمداً على ذاته. أما أمه فكانت تعمل مع زوجها في الدكان. وقد ترعرع توفيق زياد متحلياً بالأخلاق الكريمة الطيبة، وتعلم الشجاعة والمواجهة من والديه حيث يقول: «ومن والدي تعلمت الشجاعة والمواجهة». وإن لم يكن رجلاً متديناً كما كان أبوه إلا أنه يحترم الدين ورجال الدين من كل جماعةٍ، والذي يظهر أنه كره التعصب الديني كرهاً شديداً ورفضه رفضاً تاماً حيث قال إن الإسلام دين التسامح (زياد، 1994).

ومنذ أن درس توفيق زياد في المدرسة الثانوية البلدية بمدينة الناصرة بفلسطين، برزت سليقته في الشعر وهوايته للقراءة، فكان يقرأ كثيراً، ولا يقتصر على مجالٍ واحدٍ فقط، بل كان يقرأ في الأدب والسياسة والثقافة والعلوم والرياضيات. وبدأت تتبلور شخصيته السياسية وهو ما يزال شاباً، ولعل ذلك عائدٌ إلى تأثير ثلاثة مربين وطنيين عليه، حيث علموه في المدرسة واهتموا باطلاع تلاميذهم على المجلات والجرائد، وهم الأستاذ رشدي شاهين والأستاذ جمال سكران والأستاذ فؤاد خوري، والذي يظهر أن الأستاذ رشدي شاهين هو أحد قادة عصبة التحرر الوطني والحزب الشيوعي الأردني. ومن هنا ظهرت العلاقة بينهم وبين فرع الناصرة لعصبة التحرر الوطني، وهنالك شارك توفيق زياد وبعض أصدقائه في التظاهرات الشعبية (زياد، 1994).

ولا شك أن توفيق زياد يحب عمله السياسي ونضاله القاسي إلا أنه أيضاً يحب الإبداع الأدبي بشكلٍ أكثر، لا سيما أنه يعد شعره بأنه وسيلةً للنضال والمقاومة. ويظهر أن معظم قصائده تتناول قضية الشعب الفلسطيني، ويتضح ذلك من خلال عناوين قصائده، وهي: "من وراء القضبان" و"ضرائب" "أدفنوا أمواتكم وانهضوا" و"شهداء الحرية" وغيرها (زياد، 1994)، حتى اعتبره النقاد أحد كبار الشعراء العرب وأحد أبرز شعراء المقاومة. وإذا قرأنا قصيدته "هنا باقون" سنجد أن لغته إلى حدٍ ما تحتوي على عناصر التحدي والمقاومة والثورة والأمل. أما لو اطلعنا على قصيدة " أهون ألف مرة" فسنرى أن الشاعر توفيق زياد في هذه القصيدة اعتمد على أسلوب المفارقة باستحضاره للمحتل. أما قصيدة "بأسناني" مثلاً فهي عبارةٌ عن ارتباط الشاعر بأرضه والصمود والاستعداد للدفاع عنه والتضحية من أجله، وكل هذا بالتأكيد يدل على أن توفيق زياد شاعر مقاومةٍ زرع في نفسه الأمل، ولهذا لجأ إلى استخدام شعره دفاعاً عن أرضه المحتلة (رابطة الكاتب الأردنيين، 2006).

وقد اعتقل توفيق زياد طوال حياته أكثر من مرةٍ، ولهذا كتب الكثير من قصائده في أيام سجنه واعتقاله، ومثال ذلك قصيدته "من وراء القضبان" التي كتبها في سجن الرملة عام 1958م، وجديرٌ بالذكر أنه في هذا العام أيضاً أُعتقل في سجن الدامون أكثر من مرةٍ فكتب قصيدة "أشد من المحال" و"14تموز" و"جزيت النصر لانتفاضة 1958م". ثم في العام الذي يليه كتب قصيدة "سمر في السجن" وهو حبيسٌ في سجن الدامون كذلك (عبادي، 2019)، ومع ذلك لم يتوقف عن أعماله الشعرية ونضاله حتى اعتبره النقاد أحد أبرز شعراء المقاومة.

ومع كل نجاحات توفيق زياد السياسية وعمله الكثير في الأدب، إلا أنه معروفٌ بالقناعة والتواضع، فقد عاش في بيت متواضعٍ. وعندما انتخب رئيساً للبلدية لم يشتر سيارةً حديثةً مع أنه مسموحٌ له على حساب البلدية وهو أمرٌ قانونيٌ، إلا أنه بقي يستخدم سيارةً قديمةً إلى أكثر من 17 سنةً من عمله في رئاسة البلدية، ثم قرر بعدها أن يشتري سيارة جديدةً وأن يتم تعيين سائقٍ له، لكنه رفض ذلك حتى أربعة أشهر، وبعد ذلك حدث له حادثٌ في الطريق وهو يقود سيارته مما تسبب بوفاته في عام 1994م (زياد، 1994).

قصيدة "سمر في السجن"

صدرت قصيدة "سمر في السجن" عام 1959م للأديب الفلسطيني المقاوم توفيق زياد، حيث كتب هذه القصيدة أثناء فترة اعتقاله في سجن الدامون، حينها حاول تسجيل تجربته عبر الكلمات وذلك عن طريق استرجاع الذاكرة لمعاناته مع رفقته، يؤكد ذلك قوله "إني أتذكر..." التي جاءت مطلع بداية القصيدة (رابطة الكاتب الأردنيين، 2006)، وهي كما يلي (زياد، د.ت):

أتذكر .. إني أتذكر ..
« ألدامون » .. لياليه المرة، والأسلاك
والعدل المشنوق على السور هناك
والقمر المصلوب على ..
فولاذ الشُباك
ومزارع .. من نمش أحمر
في وجه السجان الأنقر ..

عرفنا أن الشاعر توفيق زياد أُعتقل مرتين في سجن الدامون في سنة 1958م وخلال هذه الفترة كتب ثلاث قصائد، الأولى حينما اعتقل في يونيو وهي قصيدة "أشد من المحال"، والثانية عندما اعتقل في يوليو حيث كتب قصيدتين هما "14 تموز" و"جزيت النصر لانتفاضة 1958م". وفي العام الذي يليه اعتقل مرةً أخرى في سجن الدامون، وفي هذه المرة لم تفتْه الفرصة لكتابة قصيدةٍ أسماها بـ"سمر في السجن" للتعبير عن معاناته والقسوة التي يمر بها (عبادي، 2019). في المقطع الأول من هذه القصيدة يتذكر الشاعر توفيق زياد ظلمة الليل حينما كان في سجن الدامون القديم وأيامها المرة والمليئة بالوجع والألم. ومن خلال هذا المقطع لهذه القصيدة نستطيع أن نتصور حال الزنزنة من أسلاكها إلى سورها وشباكها، وكل هذه الأشياء جعلت رؤيتهم محصورةً داخل الزنزانة فقط، بل حتى القمر لا يمكن رؤيتها لأن النافذة قد أعاقت ذلك. فنرى أن الشاعر بدأ قصيدته بتذكر ظلمة الليل في سجن الدامون، ثم واصل قصيدته بتذكر محادثته مع زملائه في السجن، وهي كما يلي (زياد، د.ت):

أتذكر .. إني أتذكّر
لما كنا في أحشاء الظلمة نسمر
في الزنزانة .. في « الدامون » الأغبر
نتنهّد لما نسمع قصة حب
نتوعد عند حكاية سلب
ونهلّل عند تمرّد شعب ..
يتحرر

في هذا المقطع، يتذكر الشاعر توفيق زياد أوقات سمره مع أصدقائه السجناء في ظلمة الليل داخل سجن الدامون، وكلمة «التنهد» هنا جاءت في معجم اللغة العربية المعاصرة بمعنى «أخرج نفَسه بعد مدة ألما أو حزنا» (عمر، 2006). أما كلمة «التوعد» فهي بمعنى «هدده

وخوفه بالعقوبة» (عمر، 2006)، وكلمة «التهليل» بمعنى «هتف، عبر عن فرحه بالصوت أو بالتصفيق» (عمر، 2006) و«تمرد» جاءت بمعنى «خروج على نواميس المجتمع وقوانين النظام العام وعدم الاعتراف بسلطان أية سلطة» (عمر، 2006). وهذا المقطع يدل على الشعور الذي يحس به الشاعر عندما يتحدث مع زملائه وراء القضبان، فكان يتنفس من صدره ألماً وحزناً حينما يتحدثون عن الحب ثم التوعد، وأيضاً حينما يتحدثون عن المحتلين الذين سلبوا أرض فلسطين، ثم الفرح والسرور والبهجة حينما يتحدثون عن مقاومة وانتفاضة شعب فلسطين، ومحاولتهم تحرير أرضهم المشرفة من الاحتلال الصهيوني، من خلال ذلك يظهر لنا أن شعوره خليطٌ بين الألم والأمل حينما كان يسمر مع أصدقائه خلف سواد الليل المر، ولم يقف هنا بل واصل قصيدته متذكراً محادثاته عن شعبه الفلسطيني وأعدائهم، وهي كما يلي (زياد، د.ت):

ونحدث .. عن صلف الأقزام
عن شعب لم يحن الهامة للظلام
عن بطنٍ جائعةٍ، قدم حافيةٍ، وعظام
عن عزم يتوثب
في وجه الشعب الأسمر
عن أمل في عينيه يتنمّر
عن بسمته الأقوى من جور الأيام
عن يوم فيه يشب ويكبر
ونحدّث .. عن غدنا الأحمر
عن دنيا من حبٍّ وسلام
وحدائقَ من ورد .. من عنبر
وجداولَ من خمرٍ .. من سكّر

وكلمة «الأقزام» في بداية البيت هنا جاءت في معجم اللغة العربية المعاصرة بمعنى «قلل أهميته أو حجمه، صغره وهون من شأنه» (عمر، 2006)، ففي هذا البيت الشاعر توفيق زياد لم يتحدث عن تكبر المحتلين وخشونتهم فحسب، بل حاول وصفهم بأنهم كالأقزام تقليلاً من شأنهم واستصغاراً وإذلالاً لهم، وهذا يدل على مدى كره الشاعر لهؤلاء المحتلين (بوابة روافد التعليمية، د.ت). ثم في البيت الذي يليه، تحدث الشاعر عن شعبه الكريم الذي لم يخضع أبداً ولم يستسلم للمحتل الظالم، فهو يقاوم ويصمد وينتفض ويرفض قسوة المحتل. وكما تحدث الشاعر أيضاً مع أصدقائه عن حالتهم في الزنزانة، فكانوا جائعين، ويمشون حافي القدمين، وهذا دليلٌ على حالة السجن الأليمة. وفي الأبيات التسعة التي تليها كانوا يتحدثون عن آمال المستقبل المتعلقة بالحرية، وشعب فلسطين كما وصفهم الشاعر بأنهم ذو بشرةٍ سمراء وسيبقون صامدين ثابتين صابرين في مقاومة الأعداء، وعلى الرغم من شدة أيام الاحتلال إلا أنهم لم يطأطئوا رؤوسهم أبداً لأعدائهم، فكلما كبروا وشابوا زادت آمالهم وعزمهم وصاروا أقوى لتحرير أرضهم وتحقيق الانتصار على الاحتلال الصهيوني. ويصف الشاعر توفيق زياد آمالهم بكلمة «يتنمر» أي أنه شبهه بالنمر في طبعه دلالةً على شدة غضب شعب فلسطين تجاه المحتلين الظالمين (بوابة روافد التعليمية، د.ت)، فكانوا يأملون مستقبلا حرا وواعدا وخاليا من أي احتلالٍ، ممتلئا بالأمن والسلام ومعطرا بالود والحب، وهو مستقبلٌ جميلٌ وحلوٌ إن لم يعترض فلسطين وأهلها سلطة المحتل الغاشم.

ثم تحدث الشاعر بعد ذلك عن الآمال في قصيدته، فيذكر المحادثة التي دارت بينه وبين زملائه السجناء حول حكاية شعبية وهي كما يلي (زياد، د.ت):

أتذكّر ... إنّي أتذكّر ...
لما كنّا في أحشاء الظّلمة نسمر
وربابة ((إبراهيم)) تُعمّر
تحكي .. عن ((عبسٍ)) .. عن ((عنتر)) ..
عن عبلةَ .. عن سالفها الأسمر
عن ((جسّاسٍ)) ..
و ((أبو زيدٍ)) ..
و ((دياب)) ..
وعن التّغريبة .. والأحباب الغيّاب ..
وعن ((البطلين ..كأنهما جبلين)) ..
وعن السيف المصقول ..
((أبي الحدين))
وعن العشاق .. عن الحب الأخضر

من خلال هذا المقطع الشعري، نستطيع أن نرى كيف يتذكر الشاعر أيامه السابقة حينما كان معتقلاً في سجن الدامون، فكان يتحدث مع أصدقائه السجناء عن حكايةٍ تراثيةٍ شعبيةٍ في ذلك الوقت، وهو أن هناك أسيرٌ اسمه إبراهيم صنع ربابة في الزنزانة ويعزف عليه قبل أن يحكي العديد من الشخصيات التراثية التاريخية (بوابة روافد التعليمية، د.ت)، وهم عنترة وجساس وأبو زيد ودياب. وهذه الشخصيات العربية التراثية التي ذكرها الشاعر بالتأكيد لها علاقةٌ بشعب فلسطين اليوم لكونهم الأبطال الذين يقاومون حتى ينالوا حقهم المسلوب، وهكذا هم الفلسطينيون يجاهدون ويصمدون وينتفضون من أجل تحرير وطنهم من الاحتلال الصهيوني (بوابة روافد التعليمية، د.ت). فنرى القصة التي دارت بين عنترة وعبلة، حيث أن عنترة كان شاعراً مشهوراً في الجاهلية من قبيلة عبس، عاشقاً لابنة عمه عبلة، وحبه العميق وعشقه المخلص وشغفه الصادق لها جعله أكثر شجاعةً وقوةً في أرض المعركة، فكان مدافعاً عن قبيلته أمام الأعداء (إبراهيمي وآخرون، 2019). أما جساس فقصته المرتبطة بالمقاومة برزت في حرب البسوس، حيث قاتل أميراً اسمه كليب ما أدى إلى نشوب حربٍ استمرت لمدةٍ طويلةٍ جداً تجاوزت 40 سنةً، وهناك قبيلتان يتقاتلان في هذه الحرب، هما قبيلة بكرٍ وتغلب، وشجاعة وبسالة جساس – الذي كان من قبيلة بكر– تبلورت عندما قتل نحو 15 شخصًا من قبيلة تغلب (إبراهيمي وآخرون، 2019). ثم أبو زيد ودياب معروف عنهما أنهما مقاتلان شجاعان وقصتهما التي حدثت في تغريبة الهلالية تدل على بسالتهما وحماستهما، فقد هاجرا مع قبيلة بني هلال وبني سليم إلى شمال إفريقيا في العام الخامس الهجري، وهذه الهجرة مكيدةٌ من قبل القرامطة من أجل إسقاط الدولة الزناتية بالمغرب. فنرى أن الشاعر حاول ترميز هذه الهجرة لتصوير حالة اللاجئين الفلسطينيين الذين هاجروا من أرضهم المشرفة عام 1948م في غربةٍ ووحشةٍ وشتاتٍ نتيجة الاحتلال الإسرائيلي (إبراهيمي وآخرون، 2019). فهذه الشخصيات والبطولات التاريخية التي تحدث عنها الشاعر توفيق زياد مع الأسير إبراهيم وزملائه السجناء الآخرين يمثل شعب فلسطين في شجاعته وقوته فهم يقاومون وسيبقون على المقاومة والانتفاضة بالسيف والحجر والكلام، وبأي شيءٍ يقدرون

عليه من أجل رفض الاحتلال الصهيوني، ولأجل الحصول على حقهم المسلوب، ثم تحرير وطنهم من المحتلين. وكلمة «عشاق» هنا كما أكد الباحثون عزت وحامد وليلا أنها تدل على الشهداء الفلسطينيين الذين ضحوا بأنفسهم من أجل وطنهم (إبراهيمي وآخرون، 2019)، فحبهم الخالص والصادق تجاه وطنهم صوره الشاعر باللون الأخضر دليلاً على صفائه.

ثم بعد ذلك تحدث الشاعر عن البطولات التراثية مواصلاً قصيدته عن بيان حالة الأسرى داخل الزنزانة كما يلي (زياد، د.ت):

ويشيب الليل على الكرمل
وتنام ربابةُ « إبراهيم » .. تنام
وينام على « برشٍ » من « ريش نعام »
ونظل نحدق في ليل الأقزام
وسجائرنا تنفث في وجه الجدران
في صمتٍ ..
حلقات دخان
نتحدى القضبان ..
ومفتاح السجان
وعيون السجان الزرقاء ..
وشاربه الأصفر

من خلال هذا المقطع، نرى أن الشاعر جعل ربابة الأسير إبراهيم وكأنها مخلوقةٌ حيةٌ كالإنسان، فهي تتعب بعد العمل، وهكذا الربابة بعد أن يعزف عليها إبراهيم في ذلك الليل الطويل فهي تتعب، ثم تبحث عن الراحة، والذي يبدو أن الشاعر توفيق زياد أراد أن يصور حالة السجناء في سجن الدامون الذين ينامون بعد سمرهم الطويل وراء سواد الليل، فينامون على سرير الخشب لكنهم يشعرون وكأنهم نائمون على ريش النعام، ومع صمت الليل، ونومهم العميق، إلا أنهم لا زالوا يحدقون في السَجَّان مما يدل على رفضهم وعدم خضوعهم لقسوة الظالمين الذين شبههم الشاعر بالأقزام لكونهم ضعفاء وحقراء.

ثم في المقطع الرابع والخامس من هذه القصيدة أشار توفيق زياد إلى الآمال للحرية وهي كما يلي (زياد، د.ت):

يا شعبي ..
يا عود الندِّ ..
يا أغلى من روحي عندي
إنّا باقون على العهد
لم نرضَ عذاب الزنزانة
وقيود الظلم وقضبانه
ونقاس الجوع وحرمانه
إلّا لنفُكَّ وثاق القمر المصلوب
ونعيد إليك الحق المسلوب

ونطول الغد من ليل الأطماع
حتى لا تشرى وتباع !! ..
حتى
لايبقى الزورق .. دون شراع !! ..

يا شعبي .. يا عود الند...
يا أغلى من روحي عندي
أنا ...باقون...على العهد...

نرى من خلال هذه الأبيات أن الشاعر ينادي شعبه الفلسطيني الكريم بعود الند، وكلمة «ند» في معجم اللغة العربية المعاصرة تأتي بمعنى «نبات عوده له رائحة طيبة يتبخر به» (عمر، 2006)، ويعني بهذا أن الشعب الفلسطيني عندما يقاوم ويصمد وتشتعل فيه روح الانتفاضة، فإن هناك رائحةً طيبةً عطرةً جميلةً تخرج منه، وهذا يدل على ما يتميز به هذا الشعب من قوةٍ وبسالةٍ مع صفاء نفسٍ. ثم يعتبرهم الشاعر بأنهم أغلى وأحلى وأكثر قيمةً من نفسه وروحه، ما يدل على مدى احترامه لفلسطين ولشعبه الجواد. ثم في البيت الذي يليه يصرح بأعلى صوته قائلاً إنه وكُلّ شعب فلسطين الأسرى والمهجرين سيبقون على عهدهم الوفي وهو المقاومة والمناضلة والمدافعة بأي وسيلةٍ ممكنةٍ لرفض الاحتلال، وللحصول على حرية وطنهم على الرغم من ظلمة القضبان والزنزانة، وألم القيد والسجن، ورغماً عن عذاب الجوع والحرمان فهم سوف يبذلون كل طاقةٍ وجهدٍ وكل ثمنٍ باهظٍ لاستعادة حقهم المسلوب. وعلاوة على ذلك، شبه الشاعر أرضه المشرفة بزورقٍ وهي «قارب يدفع بالمجاديف أو بالمحرك، سفينة صغيرة» (عمر، 2006)، وشبه شعبه الفلسطيني بشراع وكلمة «شراع» كما وردت في معجم اللغة العربية المعاصرة بمعنى «قلع، نسيج واسع ينصب على السفينة فتهب فيه الرياح وتدفع السفينة في إبحارها» (عمر، 2006)، والشاعر في الحقيقة يريد أن يقول إن كل شعب فلسطين سيبقون على درب المقاومة والصمود سائرين ثابتين حتى لا يبقى وطن فلسطين بلا شعب فلسطين نتيجة عمل المحتلين الظالمين (بوابة روافد التعليمية، د.ت).

الخلاصة

يعتبر توفيق زياد منذ بداية شبابه شخصاً محباً للسياسة حيث شارك في العديد من التظاهرات الشعبية في وطنه. ومع ذلك فقد كان يحب الإبداع الأدبي أكثر، لا سيما أنه يرى الشعر وسيلةً نضاليةً ومقاومةً للدفاع عن أرضه المحتلة، ويبدو ذلك من خلال معظم قصائده التي تناول فيها قضية الشعب الفلسطيني مثل قصيدة "من وراء القضبان" وقصيدة "ضرائب" وقصيدة "شهداء الحرية" وغيرها كثير، حتى اعتبره النقاد أحد كبار الشعراء العرب وأحد أبرز شعراء المقاومة. فنراه يكتب ويبدع حتى وإن كان من وراء الزنزانة فهو لم يتوقف عن الكتابة مهما اعتقل أو حبس، وهذا يدل على روح المقاومة والانتفاضة في نفسه وحبه الصادق لأرضه الشريفة، والذي يظهر أنه كتب الكثير من قصائده وهو داخل السجن، إحداها قصيدة "سمر في السجن" حيث كتبها أثناء فترة اعتقاله في سجن الدامون. وهذه القصيدة تعتبر استرجاع الذاكرة للشاعر توفيق زياد حينما كان داخل سجن الدامون. فنرى أنه استرجع ذكرياته عندما كان يسمر مع زملائه السجناء الآخرين طوال الليل الطويل متحدثاً عن البطولة والبسالة التي يتمتع بها شعب فلسطين. ثم يصور لنا حالهم داخل السجن فكانت كل الأشياء محدودةً ومحصورةً حتى في رؤية القمر، وهذا دليلٌ على ظلمة القضبان وقسوة سجانه، والذي يظهر أنه لم يتحدث عن حالة الأسرى وراء الزنزانة فحسب، وإنما تحدث

كذلك عن عزم وثبات الشعب الفلسطيني الذي لم يخضع أبداً للاحتلال، فلا يهمه الحبس ولا السجان ولا المحتل، والذي يهمه هو محاولة استرجاع حقه المسلوب، وأن الفلسطينين سوف يصمدون وينتفضون ويقاومون بقدر ما يستطيعون للحصول على حرية وطنهم، فقد تعاهدوا على أن تبقى فلسطين مهما حدث، وهذا يدل بوضوحٍ على مدى يقين توفيق زياد حينما يتحدث عن وطنه وشعبه القوي، فهو لم يرض عذاب القضبان ولم يقبل ألم الاحتلال أبداً ما بقي في هذه الأرض المشرفة. وفي نهاية الدراسة، اتضحت لنا الفكرة وهو أن أدب السجون ليس عبارة عن كتابةٍ إبداعيةٍ كتبت داخل السجن فحسب، وإنما كتابةٌ تناولت قضية السجن، وحالة السجناء المؤلمة، ومدى معاناتهم وراء الزنزانة، فلعله يوضح لنا وللدارسين تعريفاً شاملاً وحقيقياً عن أدب السجون الذي اختلف حوله النقاد منذ قديم الزمن.

REFERENCES

Al-Astah, ʿAdil. (2011). *Adab al-Sujun.* Mawqiʿ Muʾassasah Filasṭin li al-Ṯaqāfah, https://thaqafa.org/site/pages/details.aspx?ItemId=7325#.YF2WFWgzZkg, retrieved on 21 March 2021.

Al-ʿAzam, ʿAbd al-Ghani. (n.d). *Muʿjam al-Ġhani*. Al-Maktabah al-Šhāmilah.

Al-Māḍhi, Šhukri ʿAziz. (1993). *Fi Naẓariyāt al-Adab*. Beirut: Dār al-Muntakhab al-ʿArabiy.

Al-Maʿush, Sālim. (2003). *Šhiʿru al-Sujun fi al-Adabi al-ʿArabiy al-Ḥadiṯh wa al-Muʿāṣir*. Beirut: Dār al-Nahḍah al-ʿArabiyyah.

Al-Zahrāʾ, Bidyār Fāṭimah wa Āminah Manāṣiri. (2020). *Adab al-Sujun ʿinda Hamzah Yunus "Al-Hurub min Sijni Ramallah" Unmuzajan*. Al-Jazāir: Jāmiʿah Mohamed Bouḍiyāf.

Anis, Ibrāhim, Muntaṣir, ʻAbdul Halim, Al-Ṣawālihi, ʻAṭiyyah, Ahmad, Muhammad Khalfullah. (2004). *Muʿjam al-Wasiṭ*. Qāherah: Majmaʿ al-Luġhah al-Arabiyyah.

Bawwābah Rawāfid al-Taʿlimiyyah. (n.d). *Samar fi al-Sijni*, http://rawafed.edu.ps/portal/elearning/uploads/file/3b3294ec1d34105d4bec40f999b59747.doc retrieved on 5th May 2021.

Ḥamdunah, Raʾfat Khalil. (2018). *Al-Jawānib al-ʾIbdāʿiyyah fi Tārikẖ al-Harakah al-Waṭaniyyah al-Filasṭiniah al-ʻAsirah fi al-fatrah mā baina 1985 ilā 2015.* Filasṭin: Wizārāh al- Iʿlām.

Hanish, Amal Abu. (2018). The Reality of Palestinian Prisoners in Israeli Jails: Haytham Jaber's Novel "The Captive" as a Model. *Journal of Social Sciences, Faculty of Humanities, Arabic Department, An-Najah International University*, 14(1).

ʿIbādiy, Hasan. (2019). Tawfiq Ziād, biwaṣlah al-Tajaddud. *Majallah al-Karmel, al-Ittihād al-ʿAm li al-Udabaʾ al-Filasṭiniyyin al-Karmel 48*(3).

Ibn Manẓur. (1414h). Lisān al-ʿArab. Beirut: Dār Ṣāder.

Ibrāhimi, ʿIzat Malā et. al. (2019). Al-Rumuz wa Dilālātihā fi Šhiʿri Tawfiq Ziād. *Majallah al-Qismi al-ʿArabiy*, Jāmiʿah Binjāb (26).

Kāmil, Riyāḍ. (2017). *Dirāsāt fi al-Adab āl-Filasṭini*. Mawqiʿ Diwān al-ʿArab, https://bit.ly/3t1vcAm, retrieved on 18th March 2021.

Muṣāwarah Imān. (2020). *Adab al-Sujun fi Filasṭin*. Šhabakah Muharrarun al-Isdār al-Iliktruniy.

Rābiṭah al-Kātib āl-Urduniyyin. (2006). Tawfiq Ziād wa al-Buʿdu al-Darāmi fi ʾašhʿārihi: min Darāmiyyati al-Hayāh ila Darāmiyyati al-Qaṣidah. *Majallah Afkār, Wizārah al-ṯhaqāfah al-Urdun* (98).

Ṣāleḥ, Fakhri. (2020). Al-Nakbah wa al-Riwāyah. *Ṣahifah al-ʿArab* (11612).

Sulaimān, Šyirin Muḥammad Hasan. (2018). *Dirāsah Taḥliliyyah li Namāzij Riwāʾiyyah min Adab al-Sujun*. Filasṭin: Jāmiʿah Bayt Leḥem.

ʿUmar, Ahmad Mukẖtār. (2006). *Muʿjam al-Lughah al-ʿArabiyyah al-Muʿāṣirah*. Qāherah:ʿĀlim al-Kitāb.

Ziād, Maḥmoud Musa Maḥmoud. (2006). *Adab al-Filasṭini fi Sujun al-Isrāeli 1987-2000*. Palestine: Jāmiʿah Berzeit.

Ziād, Tawfiq. (1994). *Al-Sirah al-Zātiah 1929-1994*. ʿAkkā: Maṭbaʿah Abu Raḥmun.

Ziād, Tawfiq. (n.d). *Diwān Tawfiq Ziād*. Beirut: Dār al- ʻAudah.